سلسلة لقاءات التفسير لشهر رمضان المبارك من عام ١٤٣٦هـ

اللقاء الثاني عشر: سورة إبراهيم (١٩-٢٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/#!/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

http://www.muslimat.net/

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله. .

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله عز وجل حمدا كثيرا طيبا مباركا ونسأله سبحانه وتعالى أن يكون مجلسنا هذا مجلساً تشهده الملائكة ويذكره الله فيمن عنده ويكون سبباً لزيادة الإيمان اللهم آمين.

نتدارس اليوم آيات من سورة إبراهيم، وهذه السورة العظيمة من السور التي ابتدأت بـ "الر" وسور "الر" التي هي يونس ويوسف وهود والرعد وإبراهيم والحجر، تدور حول أمر مهم قد سبق بيانه وهو: بيان ما لله عز وجل من كمال، وصِدْق رسالة الرسول ببيان حقيقة الرسالة وبيان حال الرسول.

فالأخبار عن المرسِل سبحانه وتعالى وعن الرسالة وعن الرسول، وتتميز هذه السور التي فيها (ألر) تتميز بعرض لآيات الله الكونية وآياته في السماوات والأرض وآياته في أحوال الخلق، وفيها عرض للمحاورات التي تحصل بين الأنبياء وبين رسلهم.

ومن ذلك في سورة إبراهيم ما أتى على لسان الرسل لما قال لهم أقوامهم: **{نَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ}**[١] الأقوام أنكرت الفطر السليمة السوية وأنكرت دلالاتها، فشكّوا في الله، ولا يشكّ إلا من طُمست فطرته، ولذلك ردّت الأنبياء فقالت: **{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}**[٢]، فهذا من الحوار الذي كان بين الأنبياء وبين أقوامهم.

فكانت سور "ألر" تُبيّن كمال عظمة الله وأدلّة ذلك من النظر في الكون.

ولذا أتى في آخر سورة يونس: **{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}**[٣].

وأتى في هود مثل هذه الأخبار وأتى أيضًا في آخر سورة يوسف: **{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}**[٤].

ثم أتى في سورة الرعد ما يدلّ على عظمة الله وكيف أنه **{رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}**[٥]، **{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ}**[٦]، وهكذا تأتي الآيات مبيّنات لكمال عظمته سبحانه وتعالى.

إلى أن نأتي في هذا الموقف الذي سنناقشه اليوم في هذه الآيات، وفيه من بيان رحمة الله ما فيه، صحيح أننا سنسمع عن عذاب الكفار ونسمع عن خطاب الشيطان لهم لكن هذا فيه من الرحمة ما فيه، فإن من رحمة الله أن يبيّن للخلق ماذا يتقون.

ولا تستعجب كيف أنّ الله مع كماله ومع غناه عن الخلق فهو تامّ الغنى عن خلقه وهو الحميد سبحانه وتعالى في فعله، فلا تستغرب أن مع كمال غناه لكنه يبدئ ويعيد لخلقه عن هذا الطريق المستقيم، من هنا اسلكوا، هذا عدوك، في هذا تفكّروا، في هذا انشغلوا، هذه حقيقة الحياة.. لا تستعجب من ذلك أبدًا لأنّ ربنا الرحمن الرحيم يربي عباده برحمته.

---

[١] إبراهيم: ٩
[٢] إبراهيم: ١٠
[٣] يونس: ١٠١
[٤] يوسف: ١٠٥
[٥] الرعد: ٢
[٦] الرعد: ٣

لأننا ونحن في سورة الفاتحة نردد: **{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** فنحن نشهد أنه يربي عباده برحمته التي وسعت كل شيء وعمّت كل حيّ، فبيان طريق الحقّ وبيان طريق الضلال، وبيان ما عليه أهل الحقّ وبيان ما عليه أهل الضلال، وخلق السماوات والأرض بالحقّ، كل هذه التفاصيل لا تدلّ إلا أنّه حميد في كل أفعاله، ولا تظنّ أنه يحتاج إلى خلقه فهو غني حميد.

فتكرار بيان هذا وتكرار بيان ما يحصل إنما هذا من بيان رحمته وهو المحمود على كمال رحمته.

فنقرأ في هذه الآيات التي هي موضوعنا **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}** هذه الآية تحتاج منا أن ننظر للسياق قبلها لنتصور أتت تابعة لأي شيء؟

لما ننظر للآية ١٣ في السورة: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ}** لازالت السورة تتكلم عن الذين كفروا وخطابهم للرسل، يهدّدودهم أنهم سيخرجونهم من قريتهم أو يعودوا من ملّتهم، فأوحى إليه ربهم يعني للرسل، بخبر عظيم، بأمر عظيم وهو أن الله سبحانه وتعالى سيُهلك هؤلاء الظالمين، وهؤلاء الظالمين يكونوا فئة عظيمة شديدة القوة، فإهلاكهم أمْر عظيم!

فيمكن أن يقع في النفس سؤال: كيف تُهلك فئة مثل هؤلاء؟

فيُجاب: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ}** كأنه يجاب بأن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على إهلاك هؤلاء وغيرهم، ولذا مباشرة نرى: **{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}** وهذا الأمر ربما لا نستبعد على من مضى وهلك، فلما يأتي أحد يقول: كيف يهلك الظالمين كيف يحصل هذا! فنقول فيما مضى ها هو فرعون قد أُهلك وها هم عاد.. لأننا لا نتصور قوتهم وقد أتانا الخبر أنهم هلكوا فيسهل علينا أن نقول أن الله قادر على إهلاكهم، لكن تعال ففكّر في الواقع وانظر إلى أهل الكفر اليوم وقوّتهم التي جعلت الناس يظنّون أنّ هؤلاء لا يهلكوا أبدا! حتى هم اغتروا بأنفسهم كما اغترّ كل من قبلهم وظنوا أنهم أتوا بكل أسباب بقاؤهم وخلودهم وكتبوا في ذلك كتبًا أنهم أتوا بكل الأسباب التي بها يخلدون وحضارتهم لن تنهدّ!

فلما تنظر لهذه الحضارات قل لنفسك: **{فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ}** وكن على يقين أن الله يهلكهم.

فيقول قائل كيف يهلكهم؟ فتقول: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}** انظر للسماوات والأرض وانظر لعظمتها تعلم أن الذي خلقهما عظيم وقادر على كل شيء فقادر أن يذهب هؤلاء ويأتي بخلق جديد.

فتبيّن هنا معنى (ألم تر)، كأنه يقال انظر بعين بصيرتك لكمال صفات الله فسترى قدرته التامة على إهلاك هؤلاء الظالمين وترى قدرته التامة على جمعهم يوم القيامة وعلى أن يبدّل غيرهم.

يقول الشيخ السعدي في الآية: "ينبّه تعالى عباده بأنه **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ}**".

فعلينا أن ننظر إليها ، وهذا يؤيّد ما مضى، أن هذه السور فيها بيان لعظمة الله المطلوب منا أن ننظر لها، **{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}**[٧].

"ينبّه تعالى عباده بأنه **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ}** أي: ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم وليستدلوا بهما وما فيهما على ما له من صفات الكمال".

بالحق بمعنى أنها تشهد على الحق ثم إذا شهدت على الحق أنتم تفعلون ما أمركم به الحق، كيف تشهد على الحق؟ انظروا للسماوات والأرض ستستدلون بهما وبما فيهما على ما له سبحانه وتعالى من صفات كمال.

قال: "وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض –على عظمهما وسعتهما– قادر على أن يعيدهم خلقًا جديدًا".

معناها انظر للسماوات والأرض ستدلّك السماوات والأرض على كمال صفات الله، ينتج من ذلك أن تعبده وتأتمر بأمره وتنتهي عن نهيه، وتعلم أيضًا أنه قادر على أن يعيدهم خلقًا جديدًا.

"ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم"، بمعنى أن يوم القيامة بعدما يكونوا في قبورهم رميم ولا يبقى منهم شيء ويبقوا آلاف السنين يعيدون من جديد خلق جديدا ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم.

"وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك" ولو نظرت للسماوات والأرض تعرف هذا، كيف النبات يكون ميت يحييه الله، وكيف ينشأ السحاب الثقال، كيف يسبح الرعد بحمده، فإذن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك.

"ولهذا قال: **{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}** يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يكونون أطوع لله منكم، ويحتمل أن المراد أنه: إن يشأ يفنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقًا جديدًا"

يفنيهم بمعنى يهلكهم كما مرّ أن الله عز وجل يهلك الظالمين، وأنه يعيدهم خلقًا جديدًا يوم القيامة.

"ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة".

والظاهر أن اختيار الشيخ هذا الأخير، كان الأول أن الله عز وجل قادر على أن يعيدكم مرة أخرى بعد الموت بدون أن يدخل مفهوم الإهلاك، أو أن يذهبكم يهلككم ويأتي في الحياة بقوم آخرين، أو أن الله يأخذ الظالمين ثم يعيدهم يوم القيامة ويحاسبهم.

"**{وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}** أي: بممتنع بل هو سهل عليه جدًّا".

وهذا ما نعتقده يقينًا، أن لا شيء عزيز على الله، بل أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، يشهد لهذا ولهذا المعنى آيات كثيرة:

قال: "**{مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ}**[٨] الآية في لقمان، وآية في الروم: **{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}**[٩]".

---

[٧] يونس: ١٠١
[٨] لقمان: ٢٨
[٩] الروم: ٢٧

على كل حال الله عز وجل على كل شيء قدير، إن يشأ يُذهب بهؤلاء القوم الموجودين ويأتي بقوم آخرين ويكونوا أكثر عبادة، وبهذا المعنى تشبه الآية: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}**[١٠]، والخلق الجديد هؤلاء يأتون فيعبدون الله عز وجل ويكونون أطوع ما يكون، لكن من رحمته أنه لا يبادركم بالإهلاك.

وهذا مثل ما مر معنا **{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}**[١١] وكما فهمنا أن من رحمة الله أنه لا يفعل بنا هذا الفعل، ونسأل الله أن يحفظ علينا إيماننا وأن لا نكون من القوم الذين يُستبدلوا، هذا معنى.

وهناك معنى آخر أن معنى **{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}** معناه أن يهلككم ثم يعيدكم يوم القيامة، وهذا أقرب لأن الآيات التي ستأتي بعد ذلك ستكون في معنى أنهم هلكوا ثم برزوا، تأتي الواو العاطفة **{وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا}**، فهذه الجملة عطْف على جملة: **{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}**، فأذهبهم وبرزوا لله جميعا يعني يوم القيامة.

ولما ننظر لكلمة **{برزوا}** نرى أنها في الماضي، تشبه **{أتى أَمْرُ اللَّهِ}** يعني سيأتي، ولما يُعبَّر بالماضي على أمر سيكون في المستقبل هذا دليل تحقيقه، يعني من المؤكّد أنهم سيبرزون، ومعنى أنهم يبرزون البروز الخروج من مكان حجاب، يعني من بيت أو من قرية أو من وراء ستار، والمعنى هنا أنهم برزوا من قبورهم، حُشروا من القبور.

"**{وَبَرَزُوا}** أي: الخلائق **{لِلَّهِ جَمِيعًا}**" ساداتهم وضعفاءهم، وسنحتاج هذا المعنى بعد ذلك في كون أنهم سيتخاصمون في النار والعياذ بالله؛ لأنه ستأتينا هنا أوصاف للمجادلة التي ستكون بين أهل الضلالة وقادتهم، سيتبيّن لنا وصف القادة ووصف الضعفاء من خلال ما يحصل بينهم من جدال، وهذه المجادلة فرع عن مجادلتهم هم لأنبيائهم، فقد كانوا يقولون لهم أنهم في شك فتردّ الرسل أفي الله شك! فالآن ستحصل مجادلة بين الطرفين بين أهل الضلالة مع قادتهم ومجادلة هؤلاء كلهم مع الشيطان.

وكون المؤمنين في شغلٍ عن ذلك بنُزُل الكرامة، سنرى الثلاثة آيات **{وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}**، ويحصل ردّ المستكبرين، ثم **{وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ}** ويحصل هذا النقاش والردّ.

إذن (وبرزوا، وقال الشيطان، وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات) هذه الجمل الثلاثة معطوفة على بعض، برزوا من قبورهم، قُضي الأمر بينهم، قال الضعفاء للذين استكبروا.. وبدأت المجادلة، ثم تجادلوا مع الشيطان، في هذه الأثناء أُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار.

فإذن هذا توصيف عجيب لتلك الحالة كيف هؤلاء يتجادلون والمؤمنون في شغل فاكهون، والغرض من هذا كله تنبيه الناس من أجل أن يتداركوا شأنهم قبل الفوات، وهذا ليس بعجيب من رحمن الدنيا والآخرة! فإنه سبحانه وتعالى يحذّرنا مما يُفضي بنا إلى سوء المصير، هذا مجمل الآيات.

---

[١٠] فاطر: ١٥-١٧

[١١] محمد: ٣٨

وبرزوا لله: يعني حضروا بين يديه.

وجميعًا: معناه كلهم بدون استثناء.

"**{وَبَرَزُوا}** أي: الخلائق **{لِلَّهِ جَمِيعًا}** حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأجداث إلى ربهم فيقفون في أرض مستوية قَاع صفصفا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا".

إذن كانوا في قبورهم ثم برزوا يعني ظهروا، فليس أحد مختفي، ويبرزون له لا يخفي عليه منهم خافية، تبرز أبدانهم ويبرز ما في قلوبهم، ويكونون برهم وفاجرهم ظاهرين لله وحده وهو الواحد القهار، فيكونون في مكان ليس فيه ستر ولا يستر فيه أحد، يأتي الآن الحوار..

"فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكلٌّ يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟".

يأتي أول المتكلمين الضعفاء:

"فيقول **{الضُّعَفَاءُ}** أي: التابعون والمقلدون **{لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}** وهم: المتبوعون الذين هم قادة في الضلال".

وهؤلاء كلهم صفتهم الجدال، كان الضعفاء والذين كفروا يجادلون الأنبياء، لكن كيف يجادلوهم وهم ضعفاء؟ هذا متبين في سورة الحج، في سورة الحج بعدما أمر الله بالتقوى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ}**، أخبرأان هناك أربعة أصناف، الذي يشغلنا الصنفان الأولان:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}[١٢] وهذا الذي حصل مع هؤلاء الضعفاء، ضعفاء في عقولهم لا يقلّبون الحق كما ينبغي، أي داعي يدعوهم إلى الباطل يذهبون معه، هذا الصنف الأول.

الصنف الثاني: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ}**[١٣] .

كلهم سيدخلون معاً لكن واحد يتبع كل شيطان مريد وواحد ثاني هو الشيطان المريد، وهنا يتبيّن معنى الضعفاء، المقصود الضعفاء هنا الذين سلّموا عقولهم لهؤلاء المستكبرين، فيأتيك هنا أو هنا على شاشات التلفاز أو على قنوات التواصل من يحمل فكرة تخالف الحقّ، ينقّص في الدين أو ينقص في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، أو يُلقي على المسلمين شبهة، والسامعين ضعفاء في عقولهم، نقص في العلم، قوة في الشهوة، وحب لأن يحملوا راية وينطلقوا فيستقبلوا هذا الكلام وينشروه ويدافعوا عنه وهم أجهل ما يكون بحقائقه.

ويكفينا مثال في ذلك لما ألقى من ألقى الشبّه على سنة النبي صلى الله عليه وسلم وأراد أن يقلّل من قيمة أحاديث النبي لكن اتبع طريق إتهام البخاري، فيسمع السامع مقطع من خمس أو عشر دقائق يهدم فيه دين! ولا يعطي نفسه فرصة هذا السامع أن يبحث ويتيقن ويعرف الحق من الباطل.

---

[١٢] الحج: ٣، ٤

[١٣] الحج: ٨، ٩

وأكثر شيء مثير في هذه المواقف أن يقول هذا السامع التابع: لو شغلنا عقلنا سنجد أن كلام هذا صحيح! والعقل لا ينتج المعرفة إنما العقل يستقبل المعرفة، فأنت قبل أن تحكم من خلال هذا المقطع الذي تكلم صاحبه فيه بتشويش، اذهب فانظر عمل رجل قضى أكثر من ١٦ عامًا يبحث عن هذه السنة الشريفة، واقرأ في الإسناد، واقرأ في حقائق الكلام، وافعل ما به تبرأ ذمّتك؛ لأن هؤلاء الضعفاء لا تظنون أنه لا يوجد عندهم فهم ولا عقل، إنما ضعفاء من جهة اليقين، ضعفاء من جهة وضع عقولهم في مكانها، فهم تابعين، لا ينعق ناعق إلا وهم يتبعونه، وحجتهم في هذا أننا فكرنا بعقولنا!

على كل حال هذا موضوع يطول النقاش فيه، لكن ليُعلم أنه من أكثر المواضيع التي يعيشها أبناءنا ويعتصرون بها، هذا الكلام في كون أن هناك أتباع وهناك متبوعين ليس عند الشباب الصغار فقط إنما عند كل السنون وعند كل الطبقات العلمية، وإذا تيسر لنا وتدارسنا سورة الحج سيتبين لنا السبب لماذا يكون الناس ضعفاء، لماذا يستسلمون، كيف يكون عندهم قاعدة من التقوى تمنعهم من الاستسلام لأي فكر يأتيهم؟

المقصود أن هؤلاء الضعفاء لما وصلوا إلى هذا الموقف أصبحوا يجادلون الذين استكبروا **{فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}**، واستكبروا هنا المقصود القادة، ونرى السين والتاء للمبالغة في الكبر، هناك قيل عنه: **{ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}**، يعني لاوي عنقه استكباراً ليضل عن سبيل الله، يقولون **{إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا}**: يعني مثل الخدم تلقون الفكرة ننشرها لكم، ترشدون إلى أمر نطيعكم، فنحن مثل الخدم.

{إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا}: كأنهم يقولون استكبرتم واتّبعناكم، افعلوا لنا شيئاً الآن.

{فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا}: وهذا الاستفهام لا يظن أنه طلب لحل، لأنهم رأوا غضب الله وعرفوا الحقيقة، وإنما هذا على وجه التوبيخ، كأنهم يقولون اظهروا مكانتكم الآن، اظهروا ماتقولونه من أنكم تفهمون وأن عندكم دين وأنكم لا تريدون إلا الإصلاح وأنكم تريدون حفظ سنة النبي صلى الله عليه وسلم، اظهروا مكانتكم الآن، وما كنتم تغرون به في الدنيا!

إذن قالوا لهم إنا كنا لكم تبعاً أي في الدنيا، أمرتمونا بالضلال لا نتصور الأمر المباشر إنما يرشدوهم وهم يسيرون وراءهم ولم يكونوا يعلمون أنه ضلال إنما سلّموا عقولهم له.

"**{إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا}** أي: في الدنيا، أمرتمونا بالضلال، وزينتموه لنا فأغويتمونا، **{فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}** أي: ولو مثقال ذرة" شيء ولو بسيط، هل تغنون عنا شيئا؟!

يأتي الآن جواب المستكبرين، ليس عندهم شيء يعتذرون به لكن كأنهم يقولون لم نقصد أن نورطكم، كيف نقصد أن نورطكم ونحن بنفسنا ورطنا! لو كنا نافعين لنفعنا أنفسنا، فابتدؤوا بالاعتذار عن ما صدر منهم بأنهم مشتركون معهم.

"**{قَالُوا}** أي: المتبوعون والرؤساء **{أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا}** و **{لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ}** فلا يغني أحد أحدا" وهؤلاء الضعفاء لم يكونوا يسألون يظنون أنهم سينفعونهم، الأمر كان واضح أنهم لم يكونوا يملكون لهم غناءًا من العذاب، إنما كان كأنهم يريدون أن يلوموهم على ما فعلوا بهم، وهذا من اليأس، عذاب ومن سبب لهم العذاب أمامهم فيبقوا يوبخوهم بهذا التوبيخ، فهؤلاء المستكبرين قالوا: "**{سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا}** من العذاب **{أَمْ صَبَرْنَا}** عليه" الأمرين سواء لا يفيدنا لا جزع ولا صبر، قلا نجاة من العذاب، وجعلوا الضمير مشترك للمتكلمين وللمُجابين، يعني الضعفاء والمستكبرين أصبحوا في مصير واحد، جمعوا

أنفسهم إتماما للاعتذار من توريطهم، كأنهم يقولون نحن ورطنا معكم ليس هناك حل، فسواء حصل الجزع وهو الحزن الذي يكون فيه شوب اضطراب، أو حصل الصبر وحبستم أنفسكم عن ذلك سواء، "**{مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ}** أي: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله".

وهنا يعطف كلام الشيطان على كلامهم: وقال الشيطان، فكأن مجادلة الضعفاء وساداتهم في التغرير بالضلالة أدّت إلى كلام الشيطان، إما أنه قد توجه إليه لوم كأن السادة والضعفاء لما تلاوموا هذا اللوم وأعتذر السادة بالحرمان من الهدى لأنهم قالوا: **{لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ}** فاعتذروا بأنهم حُرموا من الهدى، فكأنهم علموا أن سبب إضلالهم هو الشيطان؛ لأن نفي الاهتداء يقابله الضلال، ومن كان رأس الضلال؟ كان الشيطان رأس الضلال، فكأنهم انتقلوا للوم الشيطان، بمعنى أن المستكبرين انتقلوا من الاعتذار للضعفاء إلى ملامة الشيطان لأنه وسوس لهم فسبّب الضلال، أو أنهم لم يلوموه إنما توقع الشيطان بعد هذه المجادلات أن يأتي الأمر عليه وأن يتوجّهوا إليه باللوم، ولذلك في أثناء كلامه قال: **{فَلَا تَلُومُونِي}**.

فالذي يظهر أنهم لاموه، أو أنه توقع ذلك فدفعه قبل وقوعه، فأتى **{وَقَالَ الشَّيْطَانُ}**.

وسنعيد على نفسنا ونقول: يوصَف لنا هذا الوصف الدقيق من أجل أن يُثار في نفوسنا بُغض الشيطان من أجل أن نتصوّر ماذا سيكون فنحذر، وهذا كله مع غنى الله عنا! وأنه حميدا سبحانه وتعالى يُحمد عن غناه عن كل هذه الحقائق، فلما نسمع عن الشيطان نأخذ حذرنا وندافع وسواسه.

وسيتبين لنا من خلال هذا الخطاب الذي يخطبه كما سمى ابن كثير هذا الكلام من الشيطان سماه خطبة إبليس يخطب في أتباعه، لما نسمع هذا الكلام الذي خطب به إبليس في أتباعه سنراه مليء بإضمار الشر وبالكراهية وبالمكر! ومن هنا سيتبيّن لنا كيف يمكر الماكرين، وكيف يوقع الناس في مكرهم، إنما بما يحمله الشيطان الرجيم من مكر وعداوة لبني آدم.

ولو عدتم إلى ما سبق من السور سيتبيّن لكم كيف ظهر المكر مثلاً في سورة هود، كيف الأقوام مكرت بأنبيائها، وكيف كان المكر في سورة يوسف أيضًا، فهذا كله يعود إلى فعل الشيطان بالخلق.

قال تعالى: "**{وَقَالَ الشَّيْطَانُ}** الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مخاطبا لأهل النار ومتبرئا منهم **{لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ}** ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار".

{إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ} وهنا تظهر لنا كلمة الحق مرة أخرى، خلق السماوات والأرض بالحق، والله وعدنا وعد الحق، فالسماوات والأرض دلت على الحق، والذي وعدنا الله هو الحق، فكيف نجمع بين الأمرين؟

سنقول أن السماوات والأرض دلّتا على أن كل شيء أتى على العدل، وكل شيء في موضعه، فلا يمكن بعد أن ترى السماوات والأرض كل شيء في موضعه وكل شيء بمقدار لا يمكن أن تنتهي الحياة ولا يوضع أهل الكفر في موضعهم وأهل الإيمان في موضعهم، لا يمكن، فكما أن السماوات والأرض تشهدان بالحق وأن كل شيء في موضعه فكذلك وعد الله بالحق والسماوات والأرض تشهد على هذا الوعد أن كل شيء في موضعه.

"**{إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ}** على ألسنة رسله فلم تطيعوه، فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم"

فلا تدخلوا على أنفسكم شبّه يدخلها الشيطان، يأتي العبد منا فيقول لو قُدّر لي من أهل الجنة سأكون، ولو قُدّر لي أن أكون من أهل النار سأكون! هذه شبهة يلقيها عليك الشيطان، كل ميسّر لما خُلق له، أنت لما تنظر لهذا الأمر تجتهد أن تعمل الطاعات تعمل الطاعات فتنقذ نفسك من النار؛ لأنك لا تستطيع أن تقول أنك اطلعت على اللوح المحفوظ وعرفت أنم في النار! **{وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ}** فهذه الشبه التي يلقيها الشيطان تغلق على الإنسان طرق العمل الصحيح، والشيطان يَعِد ويخلف، كذبت موعدي.

والله عز وجل وعدنا على لسان رسله بوعود عظيمة لو تأمّلها المتأمّل ما كان يترك هذه الوعود لوعود الشيطان، والله عز وجل يقول في وعود الشيطان: **{يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا}**[١٤].

قال: "**{وَوَعَدْتُكُمْ}** الخير **{فَأَخْلَفْتُكُمْ}** أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة".

يعدهم ويمنيهم، ثم يزيد براءة منهم يقول: **{وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ}** يتبرأ منهم، لم أغلبكم، لم أقهركم، لم أكن مُجْبِرًا لكم في اتباعي فيما أمرتكم، **{وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ}** حتى حجة ما عندي.

يقول : "**{وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ}** أي: من حجة على تأييد قولي" فما يطرحه علينا من وساوس ليست إلا وساوس لكن من كثرة الضغط ومن قلة الصبر على مقاومتها وهذه أزمتنا قلة الصبر على مقاومتها فيتمكّن منّا.

ماهو سلطانه؟ إلا أن دعوتكم، أو على الأصح يأتي الاستثناء بمعنى لكن، لكن دعوتكم فاستجبتم لي، ماكان لي سلطان لكن الذي حصل دعوتكم فاستجبتم لي.

"أي: هذا نهاية ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي وزينته لكم، فاستجبتم لي اتباعا لأهوائكم وشهواتكم".

وهنا الشاهد المهمّ وهو أنّ الخلق يكون عندهم شهوات ويكون عندهم إرادات فيأتي الشيطان يحركها، فما أن يحركها الشيطان إلا الإنسان يستسلم لهذه الأهواء، الشيطان لا يأتي بشيء ليس موجود فيك، إنما يجربك ويجربك، يأتيك مثلاً من سوء الظن ويعرض عليك هذا فعل كذا وفعل كذا، إن استجبت أخذ هذه الثغرة وبقي عليها وأنت لا تحميها لا بالاستعاذة ولا بإحسان الظن ولا باتباع الأمر، فهو سكنها، ثم يجرب لك ثغرة أخرى مثلاً النظر إلى المحرمات، فتنظر وتسترق النظر وهو يمدّك ويدفعك، ويساعدك، وجدك ضعيف وقف على هذه الثغرة، وأنت لا تسدها ولا تستغيذ ولا تغض بصرك ولا تفعل الأفعال التي بها تدفعه عنك، فالشيخ يقول " فاستجبتم لي اتباعا لأهوائكم وشهواتكم".

"فإذا كانت الحال بهذه الصورة **{فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ}**" يعني انقلبت المسألة تمامًا، تأتون تريدون أن تقولون أنت الملام، فيُرَدّ عليكم فيقال بل أنتم الملامون في كونكم استجبتم.

"فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب" يعني لا تضعوا بلاءكم على غيركم بل أنتم ابتدأتم المسألة في أنكم استجبتم، كأنه يقول ما فعلت شيء، فقط دللتكم وبقيت أكرر عليكم وأنتم استسلمتم والشأن لكم، ولذلك تستحقون العذاب.

---

[١٤] النساء:١٢٠

"**{مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ}** أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها" بمصرخكم تأتي من صاحب الكرب يصرخ فيأتي من يغيثه فيستجيب لصرخته، فهو ليس بمصرخ ولا هم مصرخين له، لا هو يغيثهم من الشدة ولا هم يغيثونه من الشدة، كلٌّ له قسط من العذاب.

ثم يأتي الأكبر منه **{إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ}** يعني هو يعلم أن الناس جعلوه شريكاً مع الله إما مباشرة في عبادة الشيطان أو غيره أو من وراء حجب كمن عبد النجوم وكم عبد الأصنام وكمن عبد بوذا وكمن عبد البقر، وهو من ورائهم، عظّم لهم هذه الأشياء فعظّموها وقبلوها وساروا وراءها، وقد أشركوه فهو الصوت الذي يسمعونه عند القبور، هناك من يقسم لك أنه أتى إلى هذا القبر فدعاه فردّ عليه! فتقول ما هي إلا رنة الشيطان صوت الشيطان. وآخر يقول ذهبت عند الولي الفلاني وتمسحت فوجدت يدًا تخرج وتمدّ لي الدنانير! ويقسم! نقول ما هو إلا الشيطان أعطاك، أنتم أشركتموه مع الله، فهو يتبرأ الآن.

"**{إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ}** أي: تبرأت من جعلكم لي شريكا مع الله فلست شريكا لله ولا تجب طاعتي، **{إِنَّ الظَّالِمِينَ}** لأنفسهم بطاعة الشيطان **{لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** خالدين فيه أبدا".

وهذا الحقيقة من أعجب الكلام أن يكون هو الواعظ الآن!

يقول الشيخ: "وهذا من لطف الله بعباده، أن حذّرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه".

ما هي مداخله؟ قال وما لي عليكم من سلطان – ليس لي حجة – إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، إذن هذا الوسواس فقط حجة ، تقف أنت وتكتشف نفسك وتعرف عيبك، بدأك بسوء الظن، أول ما تأتي الخاطرة قف عند هذه الثغرة وادفعها وادعو لمن أسأت به الظن، وكرر الدعاء واسأل الله أن يغسل قلبك من أدران هذه البلاءات واستعيذ استعيذ إلى أن تسدّ الثغرة، يجربك مرة ومرات وأنت تردّ عليه بنفس الردود، فييأس من هذا الأمر.

ولننظر لحال الصيام نجد هذا الأمر، الآن الشيطان من فضل الله علينا يائس تماماً أن يأتي إلى نفوسنا ويحركها للطعام، وأنتم تعرفون أن الذي صُفّدت هم مردة الشياطين لكن بقيّة الشياطين موجودة، ومع ذلك ما يجرؤون أن يأتون لهذا الباب عند المؤمنين أبدًا! ولا يغروهم بالطعام، ولا يأتوهم على الطعام أبدا، السبب : يئسوا منهم، فهكذا في كل شأن من شؤوننا، يأتيك في وسواس في العقيدة في القضاء والقدر تقطع عليه تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، تطلب من الله أن يزيدك إيمانا، تدفعه تدفعه حتى يندفع عنك، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فهذا من لطف الله أن علمنا عنه.

"وأنه يقصد أن يدخله النيران" يعني أخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه وأن يقصد أن يدخله النيران، وهنا بيّن لنا أنه إذا دخل النار وحزبه أنه يتبرأ منهم هذه البراءة ويكفر بشركهم ولا ينبئك مثل خبير.

ثم يأتي كلام للشيخ رحمه الله يبيّن فيه كيف أن الله عز وجل في هذه الآية أخبر أنه ليس له سلطان وفي سورة النحل أخبر أن له سلطان من أجل أن يدفع التعارض، قال:

"واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى **{إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}**[١٥]".

إذن مرة السلطان منفي ومرة السلطان مثبت فكيف نفهم؟! قال: "فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل"، يعني ليس معه برهان.

قال: "فليس له حجة أصلا على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي".

يعني يقول ربنا سيغفر لكم، يقول لهم ربنا غفور رحيم، هذا ما منعه الله، لا تتشدد، يزيّن له، ليس له حجة.

"وأما السلطان الذي أثبته فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يؤزّهم إلى المعاصي أزّا" إذن (إنما سلطانه) يعني إنما تسلّطه، فليس له سلطان بمعنى حجة إنما له تسلّط، وهذا التسلط على أوليائه يؤزهم إلى المعاصي أزّا.

"وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه" كيف؟ يقبلون منه ما يأمرهم به، لا يسدون الثغرة على أنفسهم، وهكذا.

"ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

ولما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب الطائعين فقال: **{وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** أي: قاموا بالدين، قولًا وعملًا واعتقادًا **{جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}** فيها من اللذات والشهوات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

{خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} أي: لا بحولهم وقوتهم بل بحول الله وقوته **{تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ}** أي: يحيي بعضهم بعضا بالسلام والتحية والكلام الطيب".

وهذا يأتي مقابل ما عند هؤلاء من جدال وإلقاء اللوم بعضهم على بعض، فترى ما ميّز هذه الآية في الإخبار عن المؤمنين أن تحيّتهم فيها سلام، يعني النعيم الذي ذُكر لهم هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها لأنهار وأنهم خالدين فيها، وهذا لا يكون إلا بإذن ربهم، ثم أتى لهم نعيم خاص وهي أن تحيّتهم فيها سلام، فيحيّي بعضهم بعضًا ويتكلم بعضهم بعض بالكلام الطيب، هذه إشارة واضحة إلى أن أهل الكفر يجادلون ويتكلمون هذا الكلام في النار ويلقي بعضهم على بعض اللوم ويشاركهم الشيطان في ذلك ويشاركهم في ذلك ويكفر بشركهم ويخطب فيهم ويحصل لهم ما يحصل من الآلام واليأس ، والمؤمنين في النعيم المقيم تحيتهم فيها سلام!

نسأل الله بمنه وكرمه أن يجعلنا والدينا ووالديهم وذرارينا من أهل هذه الجنة جنات النعيم وأن نكون ممن تحيتهم فيها سلام.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

---

[١٥] النحل:١٠٠

انتهى اللقاء بفضل الله..